الأمانة

obeikandl.com

obeikandl.com

الأمانة

أمانة الاختيار هي الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال وأَبَيْنَ أن يحملنها وحملها الإنسان، والتي يترتب عليها التكليف من اللّه. هذا التكليف من اللّه محصور في «افعل» و«لا تفعل». فإن شئت فعلت ما يتطلبه التكليف، وإن شئت لم تفعل؛ وأنت مجازى على الفعل وعدم الفعل.

إذن.. معنى ذلك أن الأمانة في هذا المعنى مقصورة على ما طلبه اللّه من الإنسان وقت العرض.

وهناك أمانات أخرى هي التي توجد بين الناس بعضهم البعض، وما دامت الأمانة هي تعلق ذمة إنسان بحق الغير فعليه أن يكون جديراً بذلك، وحين يعطي إنسان إنساناً شيئاً يصير الآخذ مؤتمناً، فإن شاء أدّى، وإن شاء لم يؤد.

لكن هناك أمانات لم يعطِها إنسان لإنسان وإنما أعطاها رب الإنسان لكل إنسان. الأمانة التي هي عطاء من اللّه، فالعلم الذي أعطاه اللّه للناس أمانة، فلا تقولن إن ما تعلمه للآخرين هو دين عليهم، إنما هي أمانة من اللّه عليك أن تؤديها لخلقه الذين لا يعلمون. وكذلك الحلم أمانة، والشجاعة أمانة. والأمانة في المال قد تكون واضحة، أما في بقية الأشياء فعلى الإنسان أن يعرف أنه أمين عليها لأن صاحبها هو اللّه وهو خالقها فيك.

لقد أمن اللّه الإنسان على المواهب المختلفة حتى يؤديها الإنسان للغير. لقد أمن اللّه على القوة وقال للإنسان: أعطها لغيرك ممن لا يقدر. فليس من الضروري أن تكون الأمانة هي من صاحب مساوٍ لك لتردها إليه، ولكن الأمانة هي ما تصير مؤتمناً عليه من خالق، أو من مخلوق.

إذن.. فالأمانة بهذا المعنى أمرها واضح، فأهلية اللّه للتوحيد يجعل أن توحيده أمانة عندك؛ ولذا فأمانة الرعاية لحقوق اللّه هي أسمى وأثمن أنواع الأمانات.

وأهليتك للتكليف من اللّه حين كلفك أمانة عندك، وأهليتك كإنسان في المواهب المختلفة، ومعلوم لكل واحد موهبة، وعلى ذلك كل واحد أمين على

موهبته فليؤدها إلى غيره وليُعَدّ أثرها لمن لا توجد عنده هذه الموهبة؛ لقد أعطى اللَّه لواحد قوة في العضل، ولثان قوة في الفكر، ولثالث قوة في الحلم، ولرابع قوة في العلم، وغير ذلك من المواهب. كل هذه أمانات أودعها اللَّه في خلقه، وليكون أداؤها محققاً للتكامل بين الخلق.

فحين يؤدي كل إنسان أمانته يصبح عند كل إنسان مواهب غيره من البشر، والحق سبحانه وتعالى عندما يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] فقمة الأمانة أن يعبد الإنسان خالقه سبحانه لا شريك له، والأمانة في التكاليف التي كلفك اللَّه بها أيها الإنسان. هذه التكاليف أمانة للغير عندك وأمانة لك عند الغير، فحين يكلفك اللَّه بألا تسرق فهو سبحانه وتعالى كلف الغير كلهم ألا يسرقوك.

إذن.. كل أمانة عند الغير أمانة عندك؛ فإن أديت مطلوبات الأمانة عندك أدّى الجميع الذي حولك الأمانة التي عندهم إليك.

obeikandl.com

معنى الأمانة

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨].

وقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ أوجز الحق سبحانه في هذا القول كل تكليفات السماء لأهل الأرض، لأن الأمانات ثلاث: الأمانة العليا، والأمانة التي تتعلق بين الجنس، والأمانة التي على نفس الإنسان.. وما معنى الأمانة؟ الأمانة هو ما يكون عندك للغير من حقوق وأنت أمين عليها؛ إن شئت فعلتها وإن شئت لم تفعلها. فالواحد يقول: لقد أودعت عند فلان أمانة. ولو كانت هذه الأمانة بإيصال فهي ليست أمانة؛ ذلك أن الإيصال دليل، ولو كانت هذه الوديعة أمام شهود فهي ليست أمانة.. الأمانة أن يودع الإنسان عند إنسان آخر شيئاً وأمانته هي ذمته؛ إن شاء أقرّ بها حين يطلبها صاحبها أو ينكرها، ولذلك حين تكلمنا عن الأمانة التي عرضها الحق على السماوات والأرض والجبال وحملها الإنسان قلنا: إن الأمانة في تحقيقها شيء يقبله الإنسان ممن يأتمنه، ولا حجة على الإنسان إلا ذمة الإنسان؛ فإن شاء أقرّ وإن شاء أنكر. وهذا هو معنى خلق الإنسان مختاراً، فإن شاء قال: لا إله إلا الله وإن شاء ـ والعياذ بالله ـ لقال غير ذلك.

إذن.. فالأمانة التي أعطاها لنا الله سبحانه وتعالى هي أمانة الاختيار ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: ١٠]. إنه سبحانه وتعالى قد يسر لنا هذا السبيل وذاك السبيل.

لقد خلق الحق اللسان للإنسان، واللسان صالح لأن يقول: لا إله إلا الله. واللسان صالح ـ والعياذ بالله ـ بأن يقول كفراً، والحق سبحانه خلق للإنسان اليد؛ فإن شاء ضرب بهذه اليد إنساناً آخر؛ وإن شاء أخذ بها يد عاجز في الطريق أو يربت بها على كتف يتيم.. والحق سبحانه خلق للإنسان الساقين، إن شاء ذهب بهما إلى المسجد وإن شاء ـ والعياذ بالله ـ ذهب بهما إلى الخمارة.

إذن.. فحين يخلق الله الإنسان وهو متمتع بالجوارح فهو قد أعطاه قوة الاختيار، وهو سبحانه بذلك قد أودع عند الإنسان أمانة؛ فإن شاء الإنسان فعل كذا

أو فعل ذلك، لذلك قال الحق: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] إن كل الكائنات قد رفضت أن تحمل الأمانة، لأن الكائنات لم تضمن لنفسها حسن الاختيار وطلبت الكائنات أن يخلقها الحق مسخرة بلا إرادة اختيار.

ولذلك نجد الكونيات العليا كالماء والأرض والجبال ليس لها خيار في شيء، والشمس لا خيار لها، وكذلك الهواء، وغير ذلك من الكونيات. وكل ذلك منظم بدقة، وهي مسخرة لما يأمرها الحق سبحانه به، ولم ترض أن تكون مختارة.. وفيه فارق بين أن يقول كائن: أنا أتحمل الأمانة. وبين أن يقول كائن: أنا سأنفذ الأمانة كما يريد الله. وما دام الكائن سينفذها كما يريد الله بمنهجه، فلماذا لا يفعل الإنسان ما أراده الله بمنهجه؟! والإنسان لم يأخذ أمانة الاختيار إلا طمعاً في أن يكون حراً في أن يفعل ذلك أو يفعل العكس، ولو كان الإنسان كما يقول قد أخذ الاختيار لينفذه في مرادات الله، فلماذا لم يقل: لا يا رب أنا لا أريد أن أكون مختاراً واجعلني مسخراً. لذلك لا بدّ أن للإنسان في الاختيار مأرباً آخر. إن السماء والأرض والجبال وكل الكونيات لم يقبلوا تحمل الأمانة.

ولننتبه جيداً إلى أن هناك فارقاً بين الأمر ساعة يتحمله الإنسان والأمر ساعة يؤديه؛ فعندما يقول لك قائل: أنا عندي مائة جنيه؛ احفظها لي عندك حتى لا أبددها. والإنسان المتلقي لهذه الأمانة لا يتهم أحد ذمته، ولكنه ساعة أن قبل المائة جنيه كأمانة فهو في نيته أن يحتفظ له بها ويؤديها له في أي وقت.

لقد ضبط الإنسان نفسه ساعة تحمل الأمانة، ولكن أيضبط الإنسان نفسه ساعة أن يؤدي الأمانة؟ وقد يكون الإنسان الحامل للأمانة قد فُتحت عليه الدنيا وغلبته الظروف وأضاع المائة جنيه.

إذن.. فهناك فرق بين أن يقدر الإنسان على نفسه وقت التحمل ولكن لا يقدر على نفسه وقت الأداء. فالكونيات كالجبال والسماء والشمس قالوا: قد نحمل الأمانة ولكن قد لا نقدر عليها وقت الأداء. لذلك ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾، لكن الإنسان بما له من صفة الاختيار حمل الأمانة، ولذلك صار ظلوماً جهولاً؛ لقد ظلم نفسه لأنه أدخل نفسه في متاهة الحكم ساعة التحمل، وجهولاً بما يكون ساعة الأداء.

إذن.. الأمانة هي ما يتعلق بحق الغير خاضعاً لذمة الإنسان؛ إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل. وإزاء الإيمان بالله فالإنسان قد دخل على الحق سبحانه وتعالى

بأنه إله وحكيم وقادر ولا يضر إلا هو، وكل ما يجريه اللّه على الإنسان خير. لقد آمن الإنسان باللّه بهذه المواصفات، والحق يطلب من الإنسان في الأمانة العليا هذه أن تكون كل حركة حياة الإنسان فيها تأدية هذه الأمانة، وساعة يختبر الحق الإنسان بأمر مرهق فعلى الإنسان أن يحذر القول: إن اللّه قد أخبره أن الإنسان عليه أن يعرف حقوق الأمانة الأولى، فساعة يؤمن عليه أن يتحمل لحظة الأداء فلا يخونها، فعلى الإنسان أن يؤدي الأمانة إلى صاحبها. وأول أمانة هي أمانة الإيمان، وما دمت أيها الإنسان قد آمنت بإله قادر حكيم عليم فاستصحب هذه الأمانة في كل تصرفاتك، فهو سبحانه لا يعجزه شيء لأنه قادر، وهو لا يجري شيئاً إلا لحكمة فهو الحكيم، وهكذا تستصحب الأمانة معك دائماً، وترد الأمانة إلى صاحبها. وكذلك الأمانة للجنس الواحد، فمصالح الحياة كلها أمانات للبعض عند البعض، فكل واحد منا عنده أمانة للغير والغير عنده أمانة له. فلو أدّى الإنسان الأمانات بالنسبة للناس لأدّى الناس أمانتهم بالنسبة للإنسان، وحين يؤدي المجتمع أماناته بالنسبة لبعضه فهو يكون قد أصبح مجتمعاً متكاملاً متكافلاً.

openkandl.com

كلمة الأمانة في القرآن

كلمة الأمانة حينما نستعرضها في كتاب اللّه عزّ وجلّ نجد أنها مرة تتعدى بالباء، كمثل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ ومرة تتعدى بـ«على»: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١] وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]. إن مادة الأمانة تأتي متعدية مرة بالباء ومرة متعدية بـ«على»، وكل حرف من هذين الحرفين له حكمة.

إن الأمانة هي شيء يأتمن فيه مُؤْتَمِنْ على مُؤْتَمَنْ، ولا حجة لصاحب الشيء المؤْتَمَنْ عليه إلا ذمة المؤتَمِنْ، فإن كانت العلاقة بينهما محكومة بإيصال أو عقد أو شهود فهذه ليست أمانة، الأمانة هي ما يعطيها إنسان لآخر فيما بينهما، وبعد ذلك فالمؤتمن حر في أن يقر بها أو لا يقر. إن المؤتمن هو الذي أخذ الأمانة.

وقلنا سابقاً: إن على المؤمن الحق أن يحتاط للأمانة، لأن هناك وقتاً تتحمل فيه الأمانة، وهناك وقت آخر تؤدى فيه الأمانة إن طلبها صاحبها. ومثال تحمل الأمانة أن يعرض عليك إنسانٌ مبلغاً من المال ويقول: إن هذا المبلغ أمانة عندك فتقول له: نعم. وتأخذ المبلغ.. هذا يسمى «التحمل»، وعندنا يأتي صاحب المال ليطلبه فهذا اسمه «الأداء»؛ إن الكل يضمنون أنفسهم وقت التحمل، وقد تكون النية هكذا بالفعل. ولكن على المؤمن الحق لا يأمن ظروف الأغيار، فمن المحتمل أنه عندما يأتي صاحب المال ليطلبه من المؤتمن يجد المؤتمن نفسه وقد انشغل بالأغيار، فقد يكون قد داهمه ظرف من الظروف جعله يتصرف فيها، أو أن تكون نفسه قد تحركت، وقالت له: وماذا يحدث لو تصرفت في الأمانة ثم حين ميسرة تعيدها إلى ما كانت عليه؟ إن المؤمن الحق لا يضمن نفسه وقت الأداء؛ وإن ضمن نفسه وقت التحمل.

إذن.. يجب أن نلحظ في الأمانة ملحوظتين هما «الأداء» و«التحمل». والذين يأخذون الأمانة وفي نيتهم أن يؤدوها ضمنوا أنفسهم وقت التحمل لكنهم لا يضمنون أنفسهم وقت الأداء، لذلك فالمؤمن المحتاط يقول لنفسه: ولماذا

أعرض نفسي لذلك؟ فقد يأتي وقت الأداء لا أستطيع التصرف فيها؛ لذلك يقول لصاحب الأمانة: أرجوك ابحث عن آخر، فأنا لا أقدر على حمل هذه الأمانة، إنه خائف من وقت الأداء، وذلك ما حدث في أمانة التكليف والاختيار والتي قال عنها الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] إن السماء والأرض والجبال لا اختيار لهم، وطلبوا أن يظلوا مقهورين لأنهم لا يضمنون لحظة الأداء، أما الإنسان فلأنه ظلوم جهول فقد قال: لا.. إنني عاقل، وسأرتب الأمور. إن الإنسان ظلوم لنفسه، وجهول لأنه لم يعرف ماذا يفعل وقت الأداء.

obeikandl.com

رفع الأمانة

إن الحق خلق الإنسان وجعل الإيمان أمراً فطرياً فيه، ثم تأتي الغفلة فنبهت جزئية من جزئيات الإيمان، وتتلوها غفلة أخرى، فنبهت جزئية أخرى، وتأتي غفلة ثالثة، فتصير إلى بهتان. ولنستمع إلى حديث رسول اللَّه ﷺ الذي رواه حذيفة رضي اللَّه تعالى عنه: حدّثنا رسول اللَّه ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر. حدّثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة، ثم حدّثنا عن رفع الأمانة قال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ـ أي الأثر اليسير من الشيء ـ ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل ـ أي أثر العمل في الكف ـ كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً ـ أي متورماً ـ وليس فيه شيء، ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله، فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً حتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، وقد أتى عليّ زمانٌ، وما أبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلماً ليردنه على دينه، ولئن كان نصرانياً، أو يهودياً ليردنه على ساعيه، وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً[1].

وأما الحديث الثاني الذي حدّثنا به حذيفة عن رفع الأمانة والفتنة، قال حذيفة: كنا عند عمر فقال: أيكم سمع رسول اللَّه ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره. قالوا: أجل. قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فَأَسْكَتَ القوم. فقلت: أنا. قال: أنت، للَّه أَبُوكَ. قال حذيفة: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشربها نُكت فيه نكتة سوداء، وَأي قلب أنكرها نُكت فيه نُكتة بيضاء حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت

(١) رواه البخاري [٦٤٩٧]، ومسلم [١٤٣/ ٢٣٠].

السماوات والأرض. والآخر أسود مُرْبَادًّا كالكوز مُجَخِّياً ـ أي مقلوباً ـ لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً إلا ما أُشرب من هواه. قال حذيفة: وحدثته أن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يكسر. قال عمر: أكسرا لا أبا لك، فلو أنه فُتِح لعله كان يعاد»[1].

هكذا كان حديث الرسول ﷺ عن رفع الأمانة وضياع المناعة الإيمانية من النفس البشرية، والحق أراد للمناعة الإيمانية أن تبقى في عباده؛ لذلك أرسل الرسل حتى تتكون المناعة ويكبح المجتمع جماح كل فرد تحدث له الفتنة، لذلك عندما كان يعم الفساد في الأرض، فإن الحق يرسل الرسل حتى يعيد البريق إلى النفس اللوامة، ويحيي في المجتمع القدرة على أن يتناسق السلوك فيه على ضوء منهج اللَّه. ولذلك نجد أن المقاومة التي تحدث للرسل إنما تحدث من الذين يستمتعون بالفساد، وبآثار الفساد.

إن منهج الهداية حينما يأتي فهو يأخذ بأيدي المظلومين، ويغضب منه الظالمون الأقوياء الجبابرة؛ ولذلك يهاجمون الرسل ويرفضون منهج اللَّه؛ ذلك أن منهج اللَّه سيقطع عليهم سبل الفساد الذي يدر عليهم عائداً هو في نظرهم كبير؛ ولذلك رأينا صناديد قريش وقد تصدوا للدعوة، فرسول اللَّه ﷺ جاء بالمساواة بين كل البشر. لقد كانوا يعرفون أن مجرد النطق بـ: «لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه» يعني فقدانهم لسلطان إرهاب الناس والقبائل. فلو كانت المسألة مجرد كلمة تقال ويبقى الأمر على ما كان عليه لقالوها، ولكنها كانت كلمة تغير الأمر سياسياً واقتصادياً، واجتماعياً، ولا يبقى من جبروت لأحد، فكل الناس سواسية.

لذلك تصدى صناديد قريش لدعوة الإسلام.

ولذلك نجد أن كل رسول يأتي فإن له من يعاديه من أصحاب الفساد والجبابرة في قومه، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢].

ولذلك أراد الحق أن يجعل صيحة الإيمان في الجاهلية تأتي أولاً إلى أذن سادة العرب جميعاً، وهم قريش الذين لا يجرؤ أحد على التعرض لهم، ولم يجعل الحق النصر يأتي لمحمد ﷺ وهو في مكة حيث كانت مقام السيادة، لأن

---

(١) رواه مسلم [١٤٤/ ٢٣١].

النصر لو كان قد حدث ومحمد ﷺ يحيا بين قومه في مكة لقال قائل: لقد حدث النصر من قوم ألفوا السيادة، وأرادوا أن يسودوا برجل منهم العالم كله لا الجزيرة العربية وحدها. لذلك جعل الحق مقام النصر ينبع من المدينة المنورة. لقد جاءت الصرخة أولاً في أذن السادة، ثم التف حولها المستضعفون في الأرض الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم، ثم هاجروا وقواهم الله من بعد ذلك على الأقوياء.

obeikandl.com

الأمانة أغلى من الشيء المؤتمن

قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ [آل عمران: ٧٥] فمعنى الباء في اللغة معناها الإلصاق، أي التصق القنطار بأمانته، فأصبح هناك ارتباط وامتزاج. وإياك ساعة الأداء أن تفصل الأمانة عن القنطار، فساعة أن يغريك قنطار الذهب ببريقه فاذكر الأمانة، فعليك أن تمسك الأمانة بالقنطار. إياك أن يغريك القنطار فتترك أمانتك، فإن حدث منك أن نظرت إلى القنطار دون أن تنظر إلى عز الأمانة فهذه هي بداية الخيانة، أما استعمال «على» مع الأمانة فإن «على» في اللغة للاستعلاء والتمكن، أي اجعل الأمانة مستعلية على القنطار، وتصير أمانتك فوق القنطار. فساعة تحدثك نفسك بأن تأخذ القنطار لأنه يدير لك حركة حياتك؛ ولأنه يخرجك إلى دنيا مزوقة من الضلال، فتذكر عز الأمانة. ولذلك فالفقهاء عندما تكلموا في قطع يد السارق في ربع دينار، أما دية قطع يد إنسان لم يسرق فهي خمسمائة دينار، وتساءل البعض وقالوا: أيد السارق تقطع في ربع دينار ويد تدفع ديتها خمسمائة دينار؟! قال الشاعر:

يد بخمس مئين عسجد وديت ... ويد ما بالها قطعت في ربع دينار؟

قال الفقيه رداً على ذلك المعترض:

عز الأمانة أغلاها، وأرخصها ... ذل الخيانة، فافهم حكمة الباري

إذن.. قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥] هذا القول جاء بالباء ليلصق الأمانة بالمؤتمن عليه، أورد المؤتمن عليه ـ وهو القنطار ـ وهو أضخم شيء في موازين الذهب.

إذن.. فهذا القول يعني ألصق الأمانة بما اؤتمنت عليه حتى لا تفصلها، لأنك إن فصلت الأمانة وعزها عن القنطار لما سولت لك نفسك أن تأخذ القنطار وتترك الأمانة، وكذلك: «على»، أي: أن تكون الأمانة فوق الشيء المؤتمن، أي تكون الأمانة مستعلية على الشيء.

ويقول الحق من بعد ذلك: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ

﴿قَآئِمًا﴾ أي أن تكون دائم السؤال عن دينارك الذي ائتمنت عليه ذلك الإنسان، وأن تلح في طلب دينارك.. لماذا؟

أولاً: لقد أوضح الحق أن الأمانة ملتصقة بالقنطار، فأداء الأمانة غلاباً على بريق القنطار.

ثانياً: الذي يحاول ألا يرد الدينار إلا بإلحاح، ويقول الحق: «ذلك» وهي راجعة إلى حالة الدينار.

ومن بعدها يقول الحق: ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥] لقد قال بعض من أهل الكتاب: ليس للأميين علينا حق. والمقصود بالأميين المؤمنون الذين لم يكونوا من أهل الكتاب، وهنا نقول: هل الفضائل ومنازل الخلق تختلف في معاملتك من إنسان إلى آخر؟ هل ترفض الأمانة إذا كانت لرجل مؤمن وترد الأمانة إن كانت ليهودي؟ هل تأخذ الربا من غير اليهودي ولا تأخذ الربا من اليهودي؟!

إن هذه فضائل مجنحة، ولذلك فالحق ينبهنا إلى أن الفضيلة تكون في كل وقت وكل زمان وعلى كل إنسان. والمقصود بالأميين الذين ليسوا أهل كتاب، أو نسبة إلى الأم، كما قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] أو الأميين نسبة إلى أهل مكة فقد كانوا يسمونهم الأميين لأنهم منسوبون إلى أم القرى وهي مكة. وبزعمهم أن كل ما هو غير يهودي فهو من الأميين، لقد قال أهل الكتاب من عندهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥] من أين جاؤوا بهذا القول وهم أهل كتاب؟ لقد جاؤوا بها من عند أنفسهم. إنهم يقولون على الله الكذب. هذا ضد منهج الدين، ولأن هذا من التحريف ومن التحوير قال الله تعالى: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥] الحق سبحانه وتعالى يؤرخ لليهودية مع الإسلام، وهذا التأريخ من الله.

إذن.. فالصدق فيه، والحق منه، والناس كانوا على دين اليهودية لم يحسب الله عليهم حكماً واحداً يشملهم جميعاً، بل أنصف أصحاب الحق وإن كانوا على اليهودية؛ وبذلك استقر في أذهان المنصفين من اليهود. إن الإسلام جاء بحق لأن الإسلام لو قال قضية ضد اليهود الذين وقفوا أمام الدعوة ثم جاء بعض اليهود

الذين يفكرون في أن الإسلام حق سيقول هؤلاء: «نحن نفكر في أن الإسلام حق فكيف يهاجمنا الإسلام هذه المهاجمة؟ لكن إذا ما جاء الإسلام لينصف ويعطي كل ذي حق حقه يقول هؤلاء الناس: إن الإسلام منصف. لذلك قال بعض اليهود الذين تراودهم فكرة الإيمان بمحمد ﷺ رسولاً من عند الله. والدليل أن منهم من آمن به صلوات الله وسلامه عليه، هؤلاء يؤرخ الله لهم: ﴿مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ وتلك شهادة على صدق اليقين من هؤلاء ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ إنه تاريخ صادق لهؤلاء الذين طغت عليهم المادية، فلا يرد ما عليه إلا بعد أن تلاحقه، وتطارده بنفسك، وبالقانون».

وساعة سمع اليهود الذين تراودهم فكرة الإيمان بمحمد ﷺ أن الإسلام يؤرخ لهم تاريخاً حقيقياً يعتقدون أن المبلغ بالقرآن إنما يبلغ بصدق، والعلة في أن الذي يؤتمن على قنطار يؤدي، والذي يؤتمن على دينار لا يؤدي علة واضحة، لأن المؤتمن على قنطار أداه لأنه ملتزم برب اسمه الحق، ولا يريد من عباده أن يواجهوا حركة حياتهم بالحق، ونحن قلنا: إننا إذا سمعنا كلمة الأمانة في القرآن نجدها مرة تتعدى بـ«على» كقوله الحق تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ ونجد الأمانة تتعدى مرة أخرى بالباء كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ والمعنى غير مختلف ففي قصة أمانة إخوة يوسف على أخيهم تعدت الأمانة بـ«على».

وفي مسألة الأمانة في الآية التي نحن بصدد تناولها الآن نجد أن الحق أورد الأمانة وهي متعدية بالباء، وهنا التقاء.. لماذا؟ لأن الباء للإلصاق، وتأتي لإلصاق شيء بشيء، و«على» للاستعلاء، استعلاء شيء على شيء، فكأن الله سبحانه وتعالى يعبر التعبيرات التي تجعل المؤتمن عليه أو يجعل الأمانة مستعلية على ما ينتفع به من الشيء، فإذا ما اؤتمنت على مائة فلا تقدر قيمة المائة، ولكن تقدر الأمانة أغلى من المائة. إن الأمانة مستعلية على الشيء المؤتمن، فساعة أن تراودك نفسك أن تخون الأمانة فعليك أن تقدر الأمانة أولاً قبل أن تقدر ما تخون فيه، وكذلك لا تفصل الأمانة عن الشيء، فإذا ما جاء القول الحق ويأمنه على كذا أو أمنه بكذا؛ فإن الحق يريد أن تلتحم الأمانة بالمؤمن عليه، فإذا ما راودتك نفسك أن تخون أمانة، إياك أن تغش نفسك بنفاسة الشيء الذي تختلسه من الأمانة، بل قارن هذا الشيء بالأمانة فستجد أن كفة الأمانة هي الراجحة.

والذي يرى أن القنطار المؤتمن عليه يجب أن يؤديه هو ملتزم بمنهج، أما

الذي لا يؤدي الدينار إلا بمشقة فليس له منهج ملتزم به إلا منهج الذاتية الإيمانية، والسبب في ذلك أنهم قالوا كما جاء في القرآن الكريم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ . من هم الأميون؟ إنهم الذين لم ينزل عليهم كتاب سماوي، وهم بذلك يخدعون أنفسهم، ويلصقون بالتشريع ما ليس فيه، كأنهم يلصقون بالتشريع السماوي وهو الكتاب؛ أنه قد صنف الناس صنفين: صنف هم أهل الكتاب ولهم معاملة، وصنف هم الأميون ولهم معاملة أخرى. فكان بعضاً من أهل الكتاب لا يأخذون الربا من أهل الكتاب مثلهم، إنما يأخذونه من الأميين.

لذلك جاء الإسلام وقال: لا.. القيم الخلقية التي جاءت بمنهج من السماء هي القيم الخلقية، فلا يأتي حكم أخلاقي يختلف في نوعية المعاملة. لكنهم قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ وبذلك استباحوا لنفسهم أن يخونوا أمانات الأميين مع أنهم لا يستبيحون لأنفسهم خيانة أهل الكتاب، وهذا الذي كتبوه بأيديهم وزعموا أنه تشريع، وصنفوا الناس إلى أميين وأهل كتاب فهذا ليس تشريعاً من اللّه الذي خلق الجميع، لأنه لو كان تشريعاً من إله خلق الجميع لساوى بين أهل الكتاب والأميين. وهذا دليل على أن هذا التشريع من عنديات أهل الكتاب وليس من الرب المتولي شؤون خلقه.

وصدق اللّه العظيم إذ يقول: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

obeikandl.com

العدل يورث الأمانة

الأمانة هي أداء حق في ذمتك للغير، ويقابلها شيء بعد ذلك اسمه العدل لماذا؟ لأن الإنسان إذا ما عاش في مجتمع يؤدي كل واحد ما للغير عنده من حق لما احتجنا إلى عدل، لأن العدل إنما ينشأ من خصومة وتقاض، والتقاضي في معناه أن واحداً أنكر غيره، فلو أدّى كل واحد منا ما في ذمته من حق للغير لما وجد تقاض؛ ولما وجدت خصومة، لذلك لا توجد في مثل تلك الحالة ضرورة للعدل، ولكن الحق الذي خلق وعلم الأغيار فيهم قدر أن بعض الناس يغفل عن هذه القضية، وينشأ منها أن الإنسان لا يعطي الحق الذي عنده للغير. لذلك قضى الحق بشيء آخر اسمه العدل.

إذن.. فلو أن الإنسان قد أدّى حقوق الغير لما احتجنا إلى العدل، لأنه لن يوجد خلاف لكن الحق أعلم بمن خلق، لذلك أوجد العدل ليرد الغفلة التي تصيب البشر من الأغيار التي تطرأ على نفوسهم، فشاء الله أن يقول: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] والحق لم يقل: إذا أؤتمنتم فأدوا، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ فإذا حدثت الغفلة عن أداء الأمانة فالذي ينصر أداء الأمانة خلال الغفلة هو العدل.

وما هو العدل إذن؟ إننا نعرف أن الأمانة هي أن تؤدي حقاً أو متعلقاً حق في ذمتك للغير، لكن العدل غير ذلك. إنه أن تؤدي حقاً في ذمة الغير للغير، وذلك يكون عن طريق الحكم. وهناك لا يكون شيء متعلق للغير بذمتك، ويكون الحكم بين طرفين ويقتضي الترجيح. إذن مطلوبات أداء الأمانة هو أن تؤدي ما في ذمة عندك تؤديها لغيرك، لكن مطلوبات العدل غير ذلك. إن مطلوبات العدل أن ترجح ما يكون في ذمة الغير، ومطلوب أداؤه للغير، وتكون أنت القاضي. وكما أن آية أداء الأمانة عامة فلا بدّ أن تكون آية العدل عامة أيضاً، فقول الحق: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ لا تخص هذه الآية الحاكم وحده؛ ولكنها تخص كل واحد من البشر المكلفين، فلو كنت محكماً من طرف قوم، ورضي الناس بك حكماً بينهم في خصومة ما، وما داموا قد رضوا بك حكماً فعليك أن تحكم بالعدل، وقد

تكون لا ولاية لك على هؤلاء الناس؛ ولكن أصحاب المظلمة أو المشكلة حكموك وارتضوك؛ فعليك أن تحكم بين الناس بالعدل.

إذن.. فلا بدّ أن تتمثل منهج اللّه في قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾؛ وذلك بحق من حقوق التكريم، والشرف، والموهبة، فليس من الضروري أن يكون الحكم بالعدل في الأمور المادية، فها هو سيدنا الإمام عليّ رضي اللّه تعالى عنه، وكرم اللّه وجهه، يرى غلامين يتحاكمان إلى ابنه الحسن ليحكم بينهما، أي الخطين أجمل من الآخر، خط الأول أجمل، أم خط الثاني؟ وهذه مسألة قد ينظر إليها الناس كمسألة تافهة، فما الذي يستفيده واحد منهما بإعلان تفوقه على الآخر في كتابة الخط؟ لكن الإمام عليّ يرى في هذه المسألة أمراً هاماً؛ لأنها مسألة شغلت الطفلين، وصار كل واحد منهما يطلب معرفة من يتميز عن الآخر في كتابة الخط، لذلك لا بدّ من إنهاء هذه المسألة، فيقول الإمام عليّ لابنه الحسن: «يا بني انظر كيف تقضي فإن هذا حكم، واللّه سائلك عنه يوم القيامة».

وهذه تعطينا صورة لضرورة تحري العدالة حتى في اللعب، ونحن نرى أن العصر الحديث قد وضع قواعد محكمة للحكام الذين يقفون كقضاة في المباريات الرياضية المختلفة؛ سواء كرة القدم، أو ملاكمة أو غيرها، ولكل لعبة قوانين يترتب عليها المهارات المختلفة بين البشر، وما دام الواحد منا قد قبل أن يكون قاضياً حتى في اللعب فعليه أن يعرف كيف يحكم، ولذلك نحن نرى غضب المتفرجين إذا تغاضى الحكم عن ضربة جزاء صحيحة لصالح فريق من الفرق. وقد نتعجب عندما نرى أن المجتمع قد يصمت عند حدوث خلل في الأمور الجادة في الحياة، ففي اللعب نتمسك بقوانين الجد وفي الجد نتمسك بقانون الهزل، وتركنا الجد بدون قانون عادل. فلو اعتنينا بالجد كاعتنائنا باللعب لسارت أمورنا إلى خير عميم. هكذا نرى أن العدل ولو كان تحكيماً في اللعب فأداء الأمانة هنا حق بالنسبة للغير، وأنت الذي تحكم. والعدل حق في ذمة الغير، ونقضي به للغير، ولو كان ذلك في أمر تافه، ولكن ما دام هذا الأمر التافه قد شغل طرفين فلا بدّ أن يحكم الإنسان بالعدل، ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]. و﴿نِعِمَّا﴾ معناها أنه لا يوجد أفضل من هذه العظة، فهي نعمة تستقيم بها حركة الحياة، وهي نعمة أداء الأمانة، والحكم بالعدل، فإذا أدّى الناس الأمانة فلا نزاع ولا خلاف، وإذا أدوا

عدالة الحكم وظهر خلاف فالعدل ينهيه، وإذا علم المجتمع أن عدلا يحرس حقوق الناس عند الناس فلن يجرؤ ظالم على الظلم بعد ذلك.

فالدقة في العدل تورث ميزة الأمانة إن غفل عنها الناس، فالذي يغري الناس بالظلم هو أن بعض الأحكام لا تأتي بالعدل، فيقال: «إن فلاناً كان له سابقة وفعل مثلها ولم ينتبه أحد» وبذلك يتم الإغراء بالظلم، لكن لو أننا في كل صغيرة وكبيرة وجدنا الحكم يردع الظلم فهو يرد الحق لحقه؛ وبذلك ينتشر العدل فتنتشر الأمانة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ وقد سمى الله هذه المسألة عظة. والوعظ هو ترقيق القلب للميل إلى الحكم، لأن الله في أمره هذا لا حاجة له في أن يفعل الناس أو لا يفعلوا، ولكنها مصلحة البشر مع البشر، وأحسن ألوان الأمر ما لا يعود على الآمر بفائدة، لأن الأمر في عود الفائدة على الآمر قد يشكك في الأمر؛ فقد يوجد إنسان يأمر ولا يكون لأمره منفعة له، ولكنه قد لا يكون واسع العلم ولا واسع الحكمة، لكن الخالق سبحانه وتعالى ليس له مصلحة في الأمر، وهو سبحانه واسع العلم والحكمة، لذلك فالعظة منه مقبولة، وهي نعم العظة، وما عداها فبئست العظة لأن الله لا ينتفع بأمره هذا. وهو مأمون على خلقه، وقد يوجد في البشر من لا ينتفع بأمر يأمره، ولكنه قاصر العلم وقاصر الحكمة وهنا تكون عظته ناقصة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ أي نعم ما يعظكم به الله أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وأن تحكموا بالعدل.

وهنا نجد ملحظاً في الأداء البياني في القرآن الكريم، فقول الحق سبحانه: ﴿أَن تُؤَدُّوا۟﴾ جماعة، وهذا يعني أن كل واحد من الجماعة المسلمة مطالب بأن يؤدي هذا الحكم أولاً، وليس الأمر متوقفاً عند ذلك الحد؛ ولكن المهمة تتعدى إلى الآخرين، فالمهمة لا تقتصر على حفظ حقوق الجماعة المؤمنة فقط؛ ولكن الجماعة المؤمنة مكلفة بأن تصون الحقوق بين الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، فالحق قال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ تقتضي حماية لمن لا يؤمن بدين الإسلام، ولا توجد حماية لمن لا يؤمن بدين الإسلام أكثر من هذا. إنه سبحانه وتعالى يريد منا أن نؤدي الأمانة إلى كل الناس سواء أكانوا مؤمنين أم غير ذلك. إن كلمة الناس في هذه الآية تدل على عدالة الأمر من إلهٍ هو رب كل الناس مؤمنهم وكافرهم.

فما دام الله هو الذي استدعى الإنسان للوجود، والإنسان منه المؤمن والكافر؛ فلا أحد يخرج عن نطاق الربوبية لله. إنه سبحانه مسؤول عن رزق الجميع، ولذلك أمر الله الكون أن يعطي من فعل وتفاعل مع الأسباب سواء كان

مؤمناً أو كافراً. إنه عطاء الربوبية في الرزق، وتسخير الأشياء للإنسان، أما عطاء الألوهية هو: «افعل» و«لا تفعل». هذه أوامر تكليفية، وهو سبحانه لم يسخر الكون للمؤمن فقط؛ وإنما سخره للمؤمن والكافر، ولذلك طلب الحق منا أن نعدل بين المؤمن والكافر، ولذلك تكون الأمانة فيه مطلوبة للمؤمن والكافر وهي مطلوبة للبار والفاجر، وكذلك صلة الرحم مطلوبة للبار وللفاجر، وذلك يدل على إنسانية الدين.

ولذلك يترك الحق سبحانه وتعالى بعض الأقضية لتنشأ في عهد رسول الله ﷺ، فتأتي أشياء لتبين لنا بالتطبيق أن هناك فرقاً بين أن يكون الأمر نظرياً؛ ولكنه سبحانه يريد الأمر مطبقاً. ولأن الله سبحانه خلق الخلق ويعلم عواطفهم؛ وأن هذه العواطف عند المؤمنين في بعض الأحيان قد تميل إلى المؤمن، وقد تحابي المؤمن على حساب غيره، لذلك يشاء الله سبحانه وتعالى أن يجعل في حياة رسوله محمد ﷺ أشياء تقع منه هو، ثم ينزل التشريع على رسوله، ويكون رسول الله أول المكلفين به ليدلنا على أن التشريع في المسألة الإنسانية العامة تشريع لا يخص المؤمنين فقط؛ ولكن للمؤمنين والكافرين، ويكون ذلك حسرة على الكافرين لأنهم كفار، فعندما يرى الكافرون عدالة وأمانة المسلمين لغير المسلمين يعلمون أن الإسلام دين يؤدي إلى سمو الإيمان، وما دام الكافرون يرون المؤمنين متمتعين بسمو الإيمان فذلك يلدغ نفوسهم، لكن لو ظلم المسلمون الكافرين لقال الكافرون ـ والعياذ بالله ـ: إن المسلمين ظلمونا، ولوجدوا في ذلك مبرراً للكفر.

وتأتي هذه القصة ورسول الله في المدينة: واحد اسمه طعمة بن أبيرق سرق درعاً لواحد اسمه قتادة بن النعمان وكلاهما مسلم، والدرع كما نعرف هو اللباس الذي يحمي من طعنة العدو؛ ولكن منافذ الحق لمرتكب الجريمة ضيقة للغاية، فالجريمة لا تفيد. ووضع طعمة الدرع المسروقة في جوال كان به دقيق، وغفل طعمة عن تسرب بعض من آثار الدقيق بين أنسجة الجوال، فلما حمل طعمة الدرع في الجوال تناثر الدقيق وترك علامات في الطريق، وهو يسير من بيت ابن النعمان إلى بيته، وعندما وصل طعمة إلى بيته خاف؛ وجاءه هاجس أن الناس قد تنتبه إلى وجود الدرع عنده، فذهب بالدرع داخل الجوال إلى بيت يهودي اسمه زيد بن السمين، وترك الدرع عنده، فلما فطن قتادة بن النعمان إلى ضياع الدرع خرج معلناً سرقة الدرع، وسار هو وبعض من الصحابة ليتتبعوا الأثر، فوجدوا الأثر يقود إلى

بيت طعمة بن أبيرق، فقال طعمة: أنا لم أسرق. وتتبعوا الأثر ثانية، فوجدوا الدرع عند زيد بن السمين اليهودي، فلما رفع الأمر إلى رسول اللّه ﷺ كان طعمة بن أبيرق من قبيلة اسمها «بنو ظفر»، وجاء أعوان القبيلة إلى رسول اللّه ﷺ، وحكوا للرسول تفاصيلها وقالوا: إن مشكلةً حدثت، ولو أننا أنصفنا زيد بن السمين فالذي ستتم مؤاخذته هو طعمة بن أبيرق، وهذه سبة لنا وللمسلمين. واستمع رسول اللّه ﷺ لقولهم. ومعلوم أن رسول اللّه ﷺ أحرص الناس على ألا توجد سبة للمسلمين، وألا يوجد بينهم لص، وأن يخرج اليهودي بريئاً، وأنزل اللّه حكمه الفصل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا * وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١٠٧] أي لا تكن يا محمد مدافعاً عن الخائنين، واستغفر اللّه إن كان الخاطر قد جال برأسك، وهو أن ترفع رأس مسلم خان على يهودي لم يخن، لأن الحق أولى من المسلم.

إن استحياء بني ظفر من فضيحة طعمة بن أبيرق بين الناس لا يجب أن يلهيهم عن الفضيحة الأكبر وهي الفضيحة عند اللّه، فلا براءة لطعمة عند اللّه. ويقول الحق سبحانه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: ١٠٩].

إذن.. قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] هذا القول يقتضي أن يكون الحكم والأمانة أمراً شائعاً في كل الناس، لا يخص جماعة المسلمين أو المؤمنين فقط، ولكن يخص المؤمنين والكافرين، وكذلك الكافرين وبعضهم إذا ارتضوا حكم رسول اللّه ﷺ، والمختلفين مؤمن أو كافر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وحين نرى تذييل آية بصفتين من صفات الحق، أو باسمين من أسماء الحق فلا بدّ أن نعلم أن بين الصفتين و بين الإسمين وبين متعلق الآية علاقة، مثل هذا التذييل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ لقد جاء هذا التذييل بعد أمر بأداء الأمانة، وأمر بالحكم بالعدل بين الناس.

ولقد شرح الرسول ﷺ ذلك حين أمر من يقضي بين الناس أن يسوي بين الخصمين في لحظه ولفظه، فلا ينظر لواحد دون الآخر، ولا يكرم واحداً دون الآخر؛ وذلك حتى يشعر الطرفان بالمساواة أمام القاضي، فلا ينظر القاضي إلى طرف بحنان وعطف؛ وينظر إلى الآخر بجفاء، النظرة يجب أن تكون متساوية،

وكذلك الألفاظ، ولذلك نجد سيدنا الإمام عليًا رضي اللّه تعالى عنه ردّ القاضي لأنه قال له: يا أبا الحسن، فقال الإمام عليّ رضي اللّه تعالى عنه: أنت لا تقضي بيني وبين خصمي لأنك كنيتني دون أن تكنيه. فالتكنية دليل المودة والتعظيم. إذن.. حين يقول رسول اللّه ﷺ للقاضي: «سو بينهم في لحظك ولفظك»[1].

فاللحظ عمل العين، وذلك بأن يعرف القاضي أن فوقه بصيراً بالعباد، واللفظ يطلب الأذن، وذلك بأن يعرف القاضي أن فوقه سميعاً للعباد، وقد يقول قائل: لماذا جاء الحق هنا بأنه سميعٌ وبصيرٌ؟ قيل: لأن القول يسمع به التكريم واضحاً؛ لكن النظرة قد تكون حنوناً وغير ملحوظة إلا لمن انتبه بشدة.

والحق سبحانه وتعالى لم توجد له صفة السمع بعد أن وجد ما يسمعه، ولم توجد له صفة البصر بعد أن وجد ما يبصره، إنه سبحانه له صفة السمع قبل أن يخلق خلقاً يسمع منه، له صفة البصر قبل أن يخلق خلقاً ليبصر أفعالهم، إذن

---

(١) روى البيهقي في السنن الكبرى [٢٠٣٢٤] عن أبي العوام البصري قال: كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي اللّه تعالى عنهما أن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة فافهم إذا أدلي إليك، لأنه لا ينفع تكلم حق لا نفاذ له، وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراماً، أو حرم حلالاً، ومن ادعى حقاً غائباً أو بينة فاضرب له أمدًا ينتهي إليه فإن جاء ببينة فاضرب له أمداً ينتهي إليه فإن جاء ببينة أعطيته بحقه، فإن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية، فإن ذلك أبلغ في العذر وأجلى للعمى ولا يمنعك من قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه لرأيك وهديت فيه لرشدك أن تراجع الحق لأن الحق قديم لا يبطل شيء ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، والمسلمون عدول بعضهم على بعض في الشهادة إلا مجلود في حد أو مجرب عليه شهادة الزور أو ظنين في ولاء أو قرابة، فإن اللّه عز وجل تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان، ثم الفهم الفهم فيما أدلي إليك مما ليس في قرآن ولا سنة. ثم قايس الأمور عند ذلك، واعرف الأمثال والأشباه ثم اعمد إلى أحبها إلى اللّه فيما ترى وأشبهها بالحق، وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذي بالناس عند الخصومة والتنكر، فإن القضاء في مواطن الحق يوجب اللّه له الأجر، ويحسن به الذخر فمن خلصت نيته في الحق ولو كان على نفسه كفاه اللّه ما بينه وبين الناس ومن تزين لهم بما ليس في قلبه شانه اللّه فإن اللّه تبارك وتعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان له خالصاً، وما ظنك بثواب غير اللّه في عاجل رزقه وخزائن رحمته.

فهناك فرق بين أن يقول: «سميع بصير» و«سامع ومبصر». إن كلمة «سميع» معناها أن يكون المدرك على صفة يجب أن تدرك المسموع إن وجد المسموع، ولكن إن لم يوجد المسموع بعد فهو سميع، وإن كان لا يوجد ما يسمعه. فالشاعر قبل أن يقول القصيدة هو موهوب في الشعر، وقال القصيدة لوجود موهبة الشعر عنده. إذن فالحق سبحانه وتعالى على سبيل المثال غفار حتى قبل أن يوجد الخلق؛ أي أنه سبحانه وتعالى على صفة يجري عليها الأمر إن وجد، وهو سبحانه غافر إن وجد الأمر عندما يوجد ما يغفره بالفعل، إنه سبحانه وتعالى: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أزلاً قبل أن يخلق الخلق الذين ينشأ من وجودهم ما يسمع وما يبصر، وعليه فإن على من يتعرض للحكم في قضية غلبته بأن يكون منصفاً بين الخصمين، ولعل القاضي الذي قدم استقالته لمعاوية وقد عرف بين الناس بالعدل لأنه قبل أن يحكم في القضية، قدم له أحد الخصوم طبقاً من بواكير الرطب كهدية أو رشوة، ومع أنه ردّها عليه إلا أنه قدم استقالته لمعاوية. وبسؤاله عن السبب قال: ومع أنني قد رددت الرطب إلا أن الخصمين لم يستويا في نظري، ولهذا أنا لا أصلح لوظيفة العدل.

obeikandl.com